# سيرة الإمام امحمد بن سليمان الجزولي: قراءة أولية

محمد المازوني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر، أكادير

إذا كانت معالم التجربة الصوفية المغربية خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي لم تحمل جديدا على مستوى نظمها وهياكلها وأفكارها وأبعادها الرمزية، فإنها بالمقابل انطوت على قدر كبير من سمات التفرد المتصلة بواقع المغرب خلال هذه الفترة، والمتمثل في ما يمكن تسميته بالعوامل المسرعة لدينامية التحول في نشاط الحركة الصوفية، وهي بالتحديد تلك الثنائية الناجمة عن التهديد المسيحي.

فقد ولدت الهجمة الإيبيرية وعيا نضاليا لدى رجالات التصوف، تقوى بقدرتهم على التنظيم الذي احتوى قناعة المجاهدين في البدل و العطاء، ولعل هذا التحول هو ما أفرز تجديدا في أداء الحركة الصوفية التي ظلت قائمة في السابق على مجهود الأفراد، و بالتالي لم يكن بالإمكان بناء مشروع صوفي واضح المعالم.

اعتمدت هذه الحركة في جانبها التنظيمي على مقومات ظلت ثابتة في الممارسة الصوفية المغربية، حيث شكلت التعبئة التجنيدية إحدى علامات فلاحها، لكن وبالقدر الذي مثلت فيه هذه الروح عنوان تماسكها، بنفس القدر حملت في صلبها بذور تنافس خفي ومواجهة مع أشكال تنظيمية أخرى؛ بعضها يمثل قناعة السلطة والبعض الآخر يعبر عن مطامح الزعامة القبلية، إضافة إلى الممارسات الشعبية المتأصلة والموروثة عن تجارب سابقة، سواء كانت منظمة (الشاذلية) أو عبارة عن ممارسة تلقائية منبثة بين العامة في صور فردية أو طائفية.

وهكذا مثلت هذه الحركة التجديدية التي وضع أسسها الإمام امحمد بن سليمان الجزولي محاولة لتجاوز هذه الوضعية عبر آلية الاحتواء والتركيب، فجاء النموذج الجديد بمثابة تتويج تاريخي باهر لكل الممارسات السابقة ومحاولة موفقة لتوليفها ضمن نسق فكري موحد.

لقد شكلت تجربة الإمام الجزولي الصوفية نتاج كل التجارب السابقة، منها ما اتصل بالعطاء الخلاق لرجالات التصوف، ومنها ما ارتبط بتنامي القيم المجتمعية المكرمة لآل البيت، ومنها ما حمل بدائل التغيير السياسي المأمول.

ولتثبيت أركان هذا النموذج، اعتمد الإمام الجزولي على العديد من المقومات الروحية والشروط التنظيمية والتي بدت في ظرفية القرن التاسع بمثابة رهانات واقعية قد تفضي إلى خلاص الأمة من مآسي المحن التي حلت بها، منذ انكسار التجربة الموحدية في معركة العقاب سنة 609هـ 1212م. فمن جهة، فقد سن الإمام مشروعا صوفيا وفق آليات مستحدثة، ومن جهة ثانية، ظل متمسكا بقواعد الممارسة الصوفية النابعة من صميم التجارب الإسلامية السابقة؛ وبذلك منح طريقته أفقا أرحب للتطور والامتداد، سيساهم في بلورة تجربة صوفية رائدة، قادت إلى تجديد الممارسة الصوفية وبناء قواعد جديدة في الأداء.

لم تكن الطريقة الجزولية خارج التاريخ أو بعيدة عن الجغرافية، بل كانت نتاج تمازج مثالي، بين النموذج الإسلامي الأصيل ومتطلبات مغرب الأزمات، مغرب الانكسارات، التي تلاحقت منذ نهاية عهد أبي عنان المريني (758هـ 1358م). كانت طريقة الإمام انعكاسا لهذه الانكسارات، لذلك لم تكن إلا وظيفية من حيث عطاء رجالاتها وأتباعها، الذين قدموا البرهان على الرغبة في التغيير المنشود، تغيير الممارسة الصوفية الموروثة، تغيير واقع الأزمة، تغيير منظومات الحكم، رفع شعار إنعاش الاقتصاد.

لقد استطاعت الطريقة الجزولية تكييف قواعد السلوك والممارسة الصوفية، لتكون مستجيبة لهموم الناس ومتطلبات الواقع. وهذا هو التجديد الحقيقي الذي حمله الإمام الجزولي في صلب معاركه الفكرية وممارسته الجهادية، التي حملت مغرب القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، إلى تبني نموذج جديد في منظومة القيم الصوفية وممارسة الحكم.

## أولا. سيرة الإمام: "من تصوف الصحبة إلى تصوف العمل"

### 1. الصورة الكلية للسيرة الكاملة للإمام

سنختصرها في نص بليغ، مركب في أحسن التراكيب، صاغه صاحبه ببلاغة تعبيرية وحسن معاني، مؤرخ تربة الإمام وأكثر من أشاذ بكراماته واهتبل بشخصه، قبل أن يتحول إلى ناقد للممارسة الصوفية الطرقية، ابن الحمراء محمد بن المؤقت. يقول في "السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية": "مؤلف دلائل الخيرات في الصلاة على سيد السادات، صلى الله عليه و سلم، كان رضي الله عنه ممن جمع بين شرف الطين والدين وشرف العلم والعمل به، بفضل رب العالمين، وممن ذاق الحب النبوي وساغه، وحمل لأهل زمانه راية البلاغة، وأنفق بضاعته في مدح جده المصطفي، وأخرج من بحر المعجزات ما فيه الغنيمة والشفا، فلاح بذلك سَنا برق معارفه على القلوب، وهبت نسمات فضائله هبوب الصبا والجنوب، وانتشرت سحائب بركاته على جميع الأقطار، فأحيت موات القلوب والأفكار، وناهيك بسيد أدعنت لمعارفة وعلومه فحول الأئمة، وشهدت بجلالة قدره عظماء الأمة".

"وأما سيرته رضي الله عنه، فكان على قدر كبير في عبادة الله، موزعا نهاره وليله على ما يقربه من الله، كثير الأوراد، مستغرقا أوقاته في الصلاة على سيد الأسياد صلى الله عليه وسلم، مراقبا الله تعالى في جميع أفعاله، واقفا عند حدوده و أقواله".

"وكان يحفظ فرعي ابن الحاجب وغيرهما، عاملا بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى أن اشتهر بالصلاح، وظهرت منه كرامات ومكاشفات، وتاب على أيديه خلق كثير، وانتفع به جم غفير، حتى اجتمع من المريدين بين يديه إثنا عشر ألفا وستمائة وخمسة وستون، كلهم نالوا خيرا جزيلا.

"وكانت طريقته رضي الله عنه وطريقة أصحابه مبنية على كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، خصوصا لكتابه دلائل الخيرات، وله رضي الله عنه لسان غريب في علوم القوم، ودعوة عريضة في الولاية، قل من يتصف بها من أولياء الله، حسبما في الممتع، من ذلك قوله رضي الله عنه: "أنه قيل يا عبدي فضلتك على جميع خلقي بكثرة صلاتك على النبي"، ومن كلامه:" مخالطة العموم تذهب بنور القلوب وهيبة الوجه، ومن مات على مخالطة العموم جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر المخسوف، لا نور فيه، فليجتهد العاقل في مخالطة الخصوص، وفي مخالطة الخصوص ثلاث خصال: اكتساب العلم، وصفاء القلب وسلامة الصدر". ومن كلامه:"الوسواس يأتي من مجالسة أهل السوء، فراجع الأصل تر العجب".

وله حزب الفلاح المشهور، وله أيضا حزبه المعروف بحزب الجزولي، وحزب سبحان الدائم الذي لا يزول (...) وله تأليف سماه: "النصح التام لمن قال ربي الله ثم استقام".[1]

## 2. من الشاذلية الموسومة بالذكر إلى البحث عن الحقيقة الصوفية المطلقة

### 1.2. الرحلة العلمية الأولى للجزولي

انطلق الإمام الجزولي في رحلة التعليم من قرية أيت مولاي ببومروان السملالية إلى فاس، حيث مجمع الشاذلية، وهناك اتصل برجالاتها الموسومين إذاك

[1]- ابن المؤقت، محمد المراكشي، السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2011، صص:137 -138-139-140.

بكثرة الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم[1]، بما يؤكد انخراطه المبكر في حلقاتهم. وخلال هذه الرحلة بدأ يدّون كتاب الدلائل، وما يؤكد ذلك، بحسب المشتغلين بالجزولية وتاريخها، ما أورده الممتع من "استحضار في سيرة الإمام، للإمام الشاذلي والشاذلية، بشكل لافت للانتباه في سياق حديثه عن الدلائل"[2].

ويؤكد أكثر من شاهد على أن الجزولي اقتفى أثر الشاذليين الأوائل بفاس، وأخذ من صحبتهم مقومات شخصيته الصوفية، بل عمل على الاسترشاد بهم في ممارسة التصوف، لكن من دون سعي واضح لاكتساب سلوك الطريق عبر وساطة، أي من دون شيخ ولا صحبة. ويمكن أن يعزى ذلك إلى عدم اقتناع الجزولي بمقدار ما توفر لأولئك الشاذليين من مقدرات تربوية قادرة على تكوين جماعة تعليمية منظمة، وفق تعاليم سلوكية.

وتؤكد جل المصادر التي اعتنت بسيرة الجزولي، أن هذا الأخير شرع في بداية تأليف الدلائل خلال رحلته الأولى هاته لفاس، حيث اتسم مقامه فيها بالاعتكاف على مطالعة ما بخزائنها من كتب السير والتصوف؛ وتشدد بعض الكتابات على اهتمامه الخاص بكل ما يهم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته وصفاته. ويبدو أن المناخ الفكري الذي كانت عليه فاس حينها، من حيث الاعتناء بالشمائل المحمدية والسيرة النبوية، ساهم في التأثير في الإمام الجزولي، الذي وجد نفسه مطوقا بهذه الروح التي جسدها الشاذليون، وربما بما كان يتلقاه من علماء القرويين من توجيه تعليمي في نفس الاتجاه. وتحتفظ لنا المصادر ببعض العلماء الذين كان لهم أثر في السيرة التعليمية الأولى للجزولي، من قبيل: القاضي مفضل العمري، أبو زكرياء الرندي النفري، أبو الحسن الأنفاسي...

---

1- عن رحلة الإمام إلى فاس، يراجع: الوارث، أحمد، الطريقة الجزولية: التصوف والشرف والسلطة في المغرب الحديث، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2010، صص 27- 38.

2- الوارث، ص 33.

### 2.2. رحلة الإمام إلى الحج: الرحلة المفضية لرمزية القداسة

انتقل الإمام على عادة العلماء إلى المشرق لاستكمال التحصيل العلمي والرمزي، حيث أقام بالحرم بضع سنين، متأبطا بدلائله، مضيفا إليه الكثير من الأحزاب. وخلال هذه الرحلة زار الكثير من البلاد الإسلامية وأخذ عن الكثير من العلماء بها ومشايخ التصوف، خصوصا من الشاذليين والقادريين. بل أصبح من باب التأكيد أنه أخذ عن علماء الأزهر، من قبيل الصوفي الشهير محمد عبد العزيز العجمي، المنحدر من أصول فارسية، والذي أخذ الشاذلية بدوره من دون وساطة ومن دون التخلي عن قادريته، بل يؤكد الصوفي اليمني محمد الزبيدي (ق 13 هـ) في تفسيره لكتاب الإحياء أن ثمة تصليات كثيرة لصوفي شيرازي وردت ضمن متن الدلائل، بما يعني أن الإمام استزاد منها في إضافاته في رحلة الشرق[1].

بل ثمة إشارات تثبت أن شخصية من أصول تونسية، عاصرت الإمام أثناء مقامه بالأزهر، وهي عبد العزيز السنباتي (ت: 1475/879)، كان مالكيا ومولعا بالأمداح والصلوات على الرسول (ص)، وكان شيخه هو يوسف العجمي الذي مثل الصلة بين الجزولي ومحمد عبد العزيز العجمي القادري الطريقة؛ وبالتالي حصل اتصال روحي بينه وبين الجزولي عبر السنباتي ومحمد عبد العزيز العجمي[2].

لكن إذا كان أمر هذه الرحلة محسوم فيه من الناحية التاريخية، فإن تحليل العديد من المعطيات الخاصة بسيرة الجزولي، تثير بعض التساؤلات المتصلة بزمنها؛ لذا يحتمل أن يكون الإمام قد سافر إلى المشرق مرتين، بعد الأولى دخل المغرب، حيث قضى سبع سنوات، وربما بتيطنفطر ما بين سنتي 843 و1439/850–40 و1446، ثم عاد إلى المشرق ثانية بعد وفاة شيخه أبي عبد محمد بن أمغار سنة 850، ليكمل

---

[1]- Corrnell, V, Realm of the Saint, Power and Authority in Moroccan Sufism, University of Texas, Austin, 1998. P 174.

[2]- عن تفاصيل احتمالية التأثيرات القادرية في سيرة الإمام، يراجع: كورنيل، المرجع السابق.

رحلته العلمية. وخلال هذه السفرة الثانية، تأكد أخذه عن عبد العزيز العجمي المنضم أصلا للطريقة القادرية، فعاد ثانية إلى المغرب في حدود سنة 1453/857، بما يعني أنه لم ينهي تأليف الدلائل إلى في حدود 862/1457-58، بدليل ما ورد في إحدى نسخ خزانة ابن يوسف المراكشية وبيد تلميذه محمد الصغير السهلي مؤرخة بنفس التاريخ. وهو ما يدعونا إلى إعادة قراءة سيرة الإمام وتدوين دلائله على ضوء بحث مقارن مع الكثير من الآثار المشرقية والأصول الأخرى.

### 3.2. رحلة الإمام الثانية إلى فاس

تؤكد المصادر التاريخية إلى أن أحمد الإمام زروق هو من أشار على الجزولي، بعد رحلاته الصوفية الكثيرة وسعيه للاطمئنان لشيخ تربية، بالبحث عن شيخ واصل، فيما يبدو رغبة من الإمام للانتقال من تصوف الساعي لمدارك الطريق من دون شيخ إلى الاستمساك بحبل التربية الواصل بسند، ولم يكن هذا السند غير السلسلة الشاذلية. وقد يكون الإمام قد اقتنع بأن مسعاه لن يكتمل إلا بتطويق علمه الواسع بما يفيض به عطاء الشيوخ المقدمين للتربية، بدل عطاء الفقهاء، في تحقيق للمعادلة التي مثلت رأس المعرفة عند كبار الصوفية، وهي الجمع بين علوم الظاهر وعلوم وعلوم الباطن. وهذا التحول في الانتقال من الفقه إلى التصوف، أو كما اتفق ذوي الاختصاص على تسميتها بالهجرة الثانية للإمام.

لم يكن الشيخ المقصود بالإشارة من طرف محتسب الصوفية الإمام أحمد زروق البرنسي الفاسي، غير رأس الطائفة الشاذلية بالمغرب آنذاك، الإمام أبو عبد محمد بن أمغار الصغير.

يقول أحمد بابا التنبكتي عن هذه الرحلة "(...) رجع للساحل ولقي به أوحد وقته الحفيد أبا عبد الله أمغار الصغير، فأخذ عنه"[1]؛ ويبدو أن مقام الإمام برباط

1- التنبكتي، أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، جزآن، تحقيق علي عمر، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004، ج2، ص 230.

تيطنفطر، قد دام طويلا في صحبة شيخه، قدره البعض بأربعة عشر سنة، وكان ورد الإمام خلال خلوته التيطية نهارا أربعة عشر ألف بسملة وسلكتين من دلائل الخيرات و بالليل سلكة منه وربع القرآن"[1].

ولتأكيد علو مقدار الصلة بين الإمام وشيخه الأمغاري، كتب الإمام رسالة إليه من الحج، يؤكد له فيها دوام الصلة به واعترافه بدوام ولايته عليه، ومما قال فيها" *بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، أدام الله سعادة الوجود بوجود سعادة فياض المدد والجود وخواص بحور الطرائق على جواهر رقائق الحقائق، ظل الله على بساط أرضه والداعي إليه بالإذن في طوله وعرضه، سيدي وسندي محمد بن محمد بن عبد الله، خلد الله لجموع النفس نفسه، ولغياهب قبسه، سلام الله تعالى بنشر روح بيت النبوءة وساكينه عليكم ورحمة الله وبركاته عن محبة وعبودية بها أفتخر حامدا شاكرا داعيا لكم ولنسلكم السعيد بين يدي البشير النذير صلى الله عليه و سلم و في كل مقام ومشعر وآخره يثني عليكم عبيدكم من دار الوحي والسلام، سلام الله ورحمته و بركاته من محرم الحرام (...) وبعده عبيدكم محمد بن سليمان دام خده تحت نعالكم الشريفة"*[2].

### 4.2. الخروج من تيط وإشهار أمر الإمام بأمر شيخه

سنعتمد في إثبات خروج الإمام من رباط تيطنفطر على ما ورد في مخطوطة عبد العظيم الزموري الصغير المعنونة ب "تقييد في ذكر شرفاء المغرب وصلحائه وقبائله"[3]، حيث بين صاحبه المسارات التي سلكها أبناء وبعض مريدي الشيخ محمد بن أمغار الصغير، ومن ضمن أولئك المشار عليهم بالرحيل عن رباط تيطنفطر،

1- نفسه.

2- بوستة، محمد المراكشي، بلوغ الآمال في مناقب السادات سبعة رجال، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 1995. ص 139.

3- الزموري، محمد بن عبد العظيم، تقييد في ذكر شرفاء المغرب وصلحائه وقبائله، الخزانة الحسنية بالرباط، د 1512.

الإمام الجزولي، حيث وقع الاختيار، وربما بإشارة من شيخه، على الاستقرار بحاحا[1] وتأسيس زاويته الأولى بها. ويبدو جليا أن الدافع من الخروج كان اضطراريا بسبب تزايد المد الإيبيري على السواحل الأطلسية المغربية، وبالخصوص جهة أزمور ومازيغان، ثم أن الانتقال إلى ناحية آسفي يبرره نفس الدافع. وهو ما سيتأكد بشروع الإمام في الدعوة إلى الجهاد وتنظيم قوافل المجاهدين، ضد المحتلين وضد المتعاونين معهم، وفي مقدمتهم، حاكم آسفي حمادي أبا فرحون، الذي أجبر على التضييق بالإمام وتخييره بين أن يخرج أو يخرج هو، فخرج الإمام، وعلى لسانه قولته المشهورة: "ولكن حتى أنت على أثري".

## 5.2. ترسيم السند الصوفي الجزولي

نستخلص من كلام الباحث أحمد الوارث إلى إن قيمة السلسلة الجزولية الشاذلية وحضور الطيني فيها إلى جانب الروحي، قرب عن الإمام الشقة بهذه السلسلة[2]، بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، بل علق ابن المؤقت عليها بالقول: "والظاهر أن تلقيه من النبوءة دون واسطة لكثرة صلاته على النبي (ص)، القائمة مقام الشيخ، وإن لقي شيخا فزيادة على ذلك"[3].

لهذا فانتساب الإمام إلى الشاذلية بسند متصل مكتمل الحلقات، جعله مجددها ومصلحها ومعيدا بناء أركانها، ومزيلا عنها كل الشوائب والزوائد التي لحقت بها، بممارسة الطوائف المستحدثة منذ نهاية القرن السابع الهجري. ونستطيع أن نقرر بأن هذا الانتساب للشاذلية المجددة، وفي ظل المتغيرات التي عاشها المغرب خلال انبثاق الحركة الجزولية خلال منتصف القرن الهجري التاسع، قد حول عطاء رجالات

---

1- لم يكن اختيار الإمام لأفوغال الحاحية عشوائيا، بل أملته ضرورة رمزية. فبلاد حاحا هي أرض الركراكيين، وهي بهذا المعنى أرض ولاية وصلاح متأصلين منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأقصى. نقل محمد المختار السوسي عن أحد أولياء سوس قوله: "لما أتى سيدي محمد بن سليمان بالقطبانية من المشرق، اجتمعت أولياء المشرق والمغرب عند جبل الأخضر (أقرمود) وتنازعوا، قال: لولا الرجراجيون لحملها أهل المشرق (المعسول، ج 12، 39).

2- الوارث، المصدر السابق، ص 63.

3- ابن المؤقت، المصدر السابق، ص 138.

التصوف المنتظمين في سلك الطوائف والرباطات، إلى مؤسسة الزاوية، ككيان ديني وجهادي، جعل الحركة الصوفية المغربية تنتقل بنفسها من مجرد استجابة ظرفية لاحتياجات تربوية وإيمانية، إلى كيان منظم، سيكون له كبير الأثر في مجمل التحولات التي سيعرفها المغرب خلال العقود اللاحقة.

### ثانيا. الطائفة الجزولية: شبكة الإتباع وتدوين أخبار الإمام

أثبتت الدراسات الإحصائية التي تمت في مختلف كتب تراجم الجزولية، أن الإمام مات وكان قد اجتمع على يديه وأخذ عنه من الخلق قرابة 12665 فردا، كلهم نالوا منه وشكلوا بعد وفاته مع عرف منذئذ بالطائفة الجزولية. وقد لخص الصومعي في تشوفه الصغير مراتبهم في الأقطاب والأغواث والنقباء والنجباء والبدلاء والأوتاد والأخيار والتابعين[1].

وتوزعت شبكة الجزوليين على كافة تراب المغرب الأقصى بنسب متفاوتة، حيث استقرت على أن الأكثرية كانت بالشمال، بالرغم من أنها كانت في المنطلق في بلاد حاحا وإيداوتنان وبلاد رجراجة، لكن قيام السعديين ساهم في تحويل مراكز ثقل هذه الطائفة إلى عاصمتهم مراكش، لتنتشر بعد ذلك في سائر بروع البلاد؛ بل أمكن للباحثين في الجزولية تقسيم هذه الطائفة إلى طبقات، منها الأولى، ويمكن اعتبار جامع الدلائل امجمد الصغير السهلي رأسها، ثم شيخ الطائفة فيما بعد الإمام عبد العزيز الحرار المعروف بالتباع (ت: 1513/918)، وأحمد بن عمر الحارثي وعمرو الشيضمي المغيلي... إلى امحمد بن مبارك الأقاوي.... إلى سيدي الحاج خالد البعقيلي، وأبو البقاء خالد يحيى الكرسيفي، وسيدي عبد المنعم بن الحسن الحاحي، إلى محمد بن موسى البعقيلي[2]....

---

1- الصومعي، عبد الرحمان، التشوف في رجال التصوف، مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، ضمن مجموع رقم 1103د.

2 - تراجع تفاصيل هذه الفروع في : الوارث، الفصل الثالث من دراسته السابقة الذكر، صص 125- 162.

أجمع الباحثون المهتمون بتاريخ الطائفة الجزولية، على أن هؤلاء الرجالات ومن أخذ عنهم، هم من كان الداعي والسبب في شيوع الجزولية، بفضل تأسيسهم لزوايا بكل ربوع المغرب الأقصى، بل ثمة شبه اقتناع بأن لولا هؤلاء المشايخ، لما كان للجزولية حظ الاستمرار. ثم هناك ثمة أمر ثان، وهو أن أخبار الإمام، لم تدون في وقتها، بل انتظرنا قرنين على الأقل، ليدون محمد المهدي الفاسي سيرته الجامعة مع سائر طبقته، في "كتابه ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع"، في سياق ما يمكن أن نسميه الصورة المعادة للذاكرة الجماعية التي أثرت بصورة جلية في طريقة السرد التقليدي التي ميزت كتب سير الأولياء والصلحاء التي ألفها المغاربة قبل القرن الحادي عشر.

لقد مكننا الفاسي من ملء الفراغات الكثيرة التي اعترت سرد السيرة الجزولية، بحيث أعاد صياغتها بقراءة معادة فيما سماه بعض الباحثين في الإنتروبولوجيا الدينية، بالاتفاق المتعارض لمأساة قديمة أعيدت صياغتها بأسلوب تاريخي، مشابه للسرد الحكائي التقليدي الأرسطي والمبني على الآلام والإدراك. لهذا يقررون بأن الموت المفاجئ وغير المنتظرة للإمام، كانت قمة عطائه، وهو ما ترك أثره البالغ في نفوس مريده، لتوسع دائرة نطاق الإلهام، لتعطينا نصا معادا على شكل بناء أسطوري، هو الإمام امحمد بن سليمان الجزولي[1].

لقد استخلص هذا الباحث الإمريكي، خلاصة جاءت في ضيغة سؤال: أليست التراكيب المجازية التي جمعت بين النجاح والفلاح في عطاء الجزولي ومأساته عن

---

[1]- مثلت دراسة الباحث الأمريكي فانسان كورنيل، المشار إليها سلفا، محاولة جادة لقراءة سيرة الإمام الجزولي في سياق بحث في المدون من أخباره وكذا بمقارنة مع الكثير من الأصول المشرقية، التي تقاطعت في تناول هذه الشخصية وتأليفه كتاب دلائل الخيرات. وقد اعتمدنا على بعض الاستنتاجات التي توصل إليها كورنيل وحاولنا وضعها في سياق معالجة ترمي إلى الكشف عن بعض الجوانب الغامضة في سيرة الإمام، خصوصا وأن الكثير من مقاطع حياة الإمام لازالت مستعصية حتى على الباحثين المشتغلين بتاريخ التصوف المغربي. لهذا اعتبرنا مجهود كورنيل محاولة لإعادة قراءة سيرة الجزولي وفق منظور جديد.

السيرة الذاتية التي وضعها محمد المهدي الفاسي في ممتعه، كافية لإثبات أن التأريخ لسيرة الجزولي ما هو إلا إدراك مبدع؟ للجواب قدم تفسيرا مستنبطا من المناخ السياسي والفكري لعصر التأليف من جهة، وللخاصية الاجتماعية لمؤلف الممتع من جهة ثانية.

لكن النتيجة المستخلصة، والتي اعتبرناه منطقية بحكم الاشتغال على سيرة الإمام، تنتهي إلى أن الهدف من الترويج بقوة لسيرة الإمام وكتاب دلائل الخيرات، نابع من رغبة في تأييد مكانة الشرف داخل المجتمع عبر الولاية والصلاح، و التفوق على التصوف السياسي الذي طغى منذ وفاة أحمد المنصور الذهبي، من خلال تجارب الإمارات المختلفة التي نشأت تحت مظلة الأولياء: السملاليون، الدلائيون...، ليتم الانتصار السياسي لدولة الأشراف العلويين، الذين سعوا إلى الحد من ظاهرة التصوف السياسي، باعتماد الجزوليين، كمرشدين أخلاقيين وليسوا كفاعلين سياسيين. وهنا تتحدد قيمة إشاعة دلائل الخيرات واعتناء السلاطين العلويين به، لأنه ظل وسيظل آلية تربوية ذات تأثيرات نفسانية في قلوب المغاربة، ولم يكن بالمطلق أداة للتغيير السياسي، بالرغم من أن صاحبه كان مجاهدا وسياسيا وآمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر، بل بفضل تعاليمه تأسست دولة السعديين؛ لهذا نقول أن سيرة الإمام أفرغت في الممتع من تاريخيتها لتبقى مجرد كتاب علامة رمزية مثلها أحسن تمثيل الترويج للدلائل على نطاق جعل منه الكتاب الثاني بعد القرآن الكريم، محبة في قلوب المغاربة.

وبذلك تحول الإمام الجزولي إلى صاحب الدليل (أو مول الدليل) بعدما كان صاحب مشروع سياسي إصلاحي ومناضلا منتصرا للجهاد بكل قواه ومؤسسا لطائفة أطبقت برجالاتها الأوطان وعمت بزواياها الأركان؛ ألم يقل هو نفسه أن دولته هي دولة المجاهدين والمجتهدين. لهذا نقول أن المشروع الحقيقي الذي قامت عليه الجزولية لم يكن دلائل الإمام بل مقومات التأسيس لنموذج جديد في مقومات الحكم، جعلت دولة المغرب بعده تعرف بالإمبراطورية الشريفة. لهذا نتساءل هل علينا أن

نبقي الإمام الجزولي على الدوام في قمة هرم الأولياء الأصفياء فحسب، وننزع عنه كل دور في التغيير المجتمعي الذي عرفه المغرب منذ أن أعلن أنه مقاوم للمحتلين والمتعاملين معهم من بني جلدته؟ هل علينا أن نمجده كإحدى العلامات الرمزية المنيرة وننسى أنه كان يعبر بمشروعه الإصلاحي عن بواطن أزمة شاملة عرفها المغرب الأقصى منذ بداية القرن الهجري التاسع؟ ثم لماذا ننتصر على الدوام للإمامة الروحية للجزولي، ولا نعترف له بصنيعه السياسي؟

**نصوص وملاحق**

- سند الإمام الجزولي الشاذلي
- أبو عبد الله امحمد بن سليمان الجزولي
- أبو عبد الله محمد بن أمغار الصغير
- أبو عثمان سعيد الهرثناني الرجراجي
- أبو الفضل الهندي
- أبو العباس أحمد عنوس البدوي (راع الإبل)
- أبو العباس أحمد القرافي
- أبو عبد الله محمد المغربي
- أبو العباس أحمد المرسي
- أبو الحسن الشاذلي
- مولاي عبد السلام بن مشيش

**كتابات الإمام الجزولي:**

- أجوبة ومراسلات في الدين والدنيا: م.خ.ع، بالرباط، تحت رقم 731 ق.
- دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار
- رسالة التوحيد: م. خزانة القرويين، تحت رقم 723.
- العقيدة: م.خ.ح بالرباط، تحت رقم 7245.

- كتاب الزهد: خزانة ابن يوسف بمراكش، تحت رقم 587.
- مجموع في الأذكار: م.خ.ع بالرباط، تحت رقم 1572 ك.

**من المأثور من أقوال الجزولي[1]:**

- خصال المريد عشر في الكلاب محمودة:
- لا ينام من الليل إلا قليلا، وذلك من علامة المحبين
- لا يشتكي من حر ولا برد وذلك من علامة الصابرين
- إذا مات لم يترك بعده ما يورث عنه وذلك من علامة الزاهدين
- لا يغضب ولا يحقد وذلك من علامة المؤمنين
- لا يجزن قرينا و لا يحتمل عونا وذلك من علامة الموقنين
- إذا أعطي شيئا أكله وقنع وذلك من علامة القانعين
- ليس له موضع معلوم يأوي إليه وذلك من علامة السائحين
- أي موضع وجد نام فيه وذلك من علامة الراضين
- إذا عرف مولاه لم ينكره وإن ضربه وجوعه وذلك من علامة العارفين
- لا يزال جائعا وذلك من علامة الصالحين.

**قال الإمام الجزولي:**

قال: "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي أنا زين المرسلين، وأنت زين الأولياء".

قال: "لا تقولوا رحمكم الله أني آخذ العلم من الأرض أو من السماء، بل آخذه من الملك الحق من غير أرض ولا سماء".

1- تراجع سيرة الجزولي المفصلة في: ابن إبراهيم، العباس التعارجي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، عشرة أجزاء، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1974-1978. ج 4. ومن هذا الجزء استقينا مجمل هذه الأقوال المأثورة.

وقال: ليس العناية من تعنى بالأموال والأولاد، وإنما العناية من تعنى برب الأرباب، ليس العزيز من تعزز بالأموال والأولاد، وإنما العزيز من تعزز بالله وصفته، ليس العزيز من تعزز بالقبيلة وحسب الجاه، وإنما العزيز بالشرف والنسب؛ أنا شريف في النسب، جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا أقرب إليه من كل خلق الله، وعنايتي في الأزل مصبوغة بالذهب والفضة".

وقال: "دولتنا دولة المجتهدين المجاهدين في سبيل الله القاتلين أعداء الله".

وقال: "أما علمتم أن المصطفى صلى الله عليه وسلم، قريب مني وحكمه في يدي، من تبعني فهو متبع له، ومن لم يتبعني فليس بمتبع له".

وقال: "سمعته (الرسول) يقول أنت المهدي، من أراد أن يسعد فليأت إليك"؟

وقال: "معشر المسلمين خلق الله لكم من يهديكم في آخر الزمان، فاحمدوه".

وقال: "قيل لي يا عبدي خصصتك بعنايتي في الأزل، فلا أحد يصل إلى عنايتك، يا عبدي سيادتك على أهل المشرق والمغرب الماضين والباقين (...) يا عبدي تنافست الأولياء فيما أعطيتهم ولا يبلغ أحد ما أعطيتك من كرامتي".

وقال: "ملوك الأرض كلها في يدي وتحت قدمي، معشر المسلمين".

وقال: "معشر المسلمين، كونوا من أمة المصطفى ولا تكونوا من أعدائه بالتكذيب آخر الزمان، فاحمدوه، معشر المسلمين، لا يبغضنا على دين الله، عز وجل، إلا منن ليس له دينا ولا آخرة".

وقال: "أنا أقرب إليه من كل ما خلق الله، وعنايتي مصبوغة بالذهب والفضة، يا من أراد الذهب والفضة، فعليك باتباعنا، ومن تبعنا سكن في أعلا عليين في دار الدنيا والآخرة".

وقال: "يا عبدي لو كانت الملائكة كتابا والأشجار أقلاما والبحار مدادا، لايكتبون من أحوالك السنية إلا مقدار ما يكتب الولد الصغير في اللوح من الأسطار، يا عبدي لا يبلغ أحد مقامك من أوليائي سبق ذلك في علم الغيب عندي، وعزتي وجلالي لأعطيك يوم القيامة حكما على أوليائي".

ومن أقواله المؤثرة: "يا عبدي استضاء نورك بنوري وعلمك بعلمي، فقلت: يا رب ما نوري؟ فقال لي: نورك عقلك ونوري إلهامي، فقلت: يا رب وما علمك؟ فقال لي: علمك فهمك وعلمي إمدادك".

وقال: "قل للعلماء طوبى لكم إن كنتم مخلصين".

وقال: "قل للعلماء أصلحوا فلما أصلحوا أخلصوا، فلما أخلصوا قربوا، فلما قربوا دخلوا، فلما دخلوا نزلوا واستقروا، فلما استقروا تمكنوا وطلبوا، فلما طلبوا وجدوا، فلما وجدوا شاهدوا، فلما شاهدوا دهشوا، فلما دهشوا طاشوا، فلما طاشوا ماتوا، فلما ماتوا فاتوا، فلما فاتوا عاشوا، فلما عاشوا تكلموا مع الحي الذي لا يموت، فلما تكلموا استأنسوا، فهذه صفة العارفين الشاربين المحبة والمكاشفة المقربة على بساط الأنس والمشاهدة في السالك والمجذوب".

وقال: "يا عبدي لا تستكثر ما أعطيتك من حديثي وكلامي، وقد كلمتك في الأزل قبل وجودك، وجددت لك الفهم بعد وجودك، ونورت قلبك قبل وجودك، وطهرت سرك بعد وجودك، وأطلعتك على مكنون علمي، وشرفتك على خصوص خلقي وألهمتك الاستماع مني، وحكمتك علي خيار خلقي، ومعط لك غاية السر ياعبدي، العلماء كلهم في قبضتك".

**بعض الشروح المغربية على الدلائل**

- "الأنوار اللامعات في الكلام على دلائل الخيرات"، لأبي زيد عبد الرحمن الفاسي (ت: 1036)، م.خ.ع بالرباطن تحت رقم 937 د.
- "شرح دلائل الخيرات" لمحمد العربي الفاسي (ت: 1052).